للشيخ : محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى / (صاحب تفسير أضواء البيان)

كيف تفهم صفات الله تعالى ؟

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والسلام عليكم جميعًا ورحمة الله وبركاته، وبعد :

فإني بهذه المناسبة أريد أن ألقي أضواءً على بعض المسائل التي لها أهميتُها في الإسلام، مع أنها يتصورها كثير من ذويه بمفاهيمَ غير صحيحة، من ذلك ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ من الصفات التي تمدَّح بها خالقُ الكونِ جل وعلا، أو أثنى بها عليه نبيه ﷺ كصفة الاستواء ونحو ذلك.

فإن كثيرا من أهل الملة الإسلامية يتصوّرون ذلك بغير المفاهيم الحقيقية، والذي أريد أقوله أن المفهوم الصحيح لذلك يتركَّز على ثلاثةِ أُسُسٍ موضحةٍ غايةَ الإيضاحِ في القرآن العظيم.

الأول منها: تنزيهُ خالقِ السماواتِ والأرضِ التنزيهَ التامَ الكاملَ عن مشابهة شيء من خلقه في الذوات والصفات والأفعال.

وهذا الأصل العظيم مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ ،وقوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ ، ونحو ذلك من الآيات.

الثاني من تلك الأسس هو : الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به من قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ ؛ لأنه لا يصف اللهَ أعلمُ بالله من الله ، ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، ولا يصفُ اللهَ بعد اللهِ أعلمُ بالله من رسول الله ﷺ، الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، وذلك الإيمانُ بالصفاتِ مبنيٌّ على أساسِ تنزيهِ الخالقِ عن مماثلة خلقه في شيء من ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فإتيانه جل وعلا بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ له مغزىً عظيم، وسرٌّ كبير، وتعليمٌ واضح لا لبسَ للحق معه، لأن السمع والبصر من حيثُ هما سمعٌ وبصرٌ يتَّصفُ بهما جميع الحيوانات -﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾-، فكأنه يقول: لا تتنطَّع ياعبدي، فتنفي عني صفةَ سمعي وبصري مدَّعِيًا أن الحيواناتِ تسمعُ وتبصر وأن إثبات سمعي وبصري لي ، والإيمانَ بهما ، يستلزم التشبيه بما يسمع ويبصر من خلقي. لا ! بل آمن بسمعي وبصري وأثبِتْهما لي ولكن لاحظ في ذلك الإثبات قولي قبله مقترنًا بـ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، فأول الآية دليل على التنزيه الكامل من غير تعطيل، وآخرها دليل على الإيمان بالصفات من غير تشبيه ولا تمثيل، فيلزم من ذلك إيمانٌ وتنزيهٌ، فمن تقدم بين يدي الله وتجرأ على أن ينفي عنه وصفًا أثنى به على نفسه ، أو أثنى عليه به نبيه ﷺ فكأنه يجعلُ نفسَه أعلمَ بالله من الله ورسوله ، ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن اعتقد أن وصفًا أثنى الله به على نفسه يشبه شيئا من صفات خلقه لهو أجهلُ خلقِ اللهِ بالله، ومن أثبت لله ما أثبته لنفسه في حال كونه منزهًا ربَّه غايةَ التنزيهِ عن مشابهة صفات الخلق فهو مؤمن منزّه، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، مستضيء بنور قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

الثالث من تلك الأسس: قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، لأن العقول لا تحيط علمًا بمن خلقها، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ .

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ فعل في سياق النفي، وهو صيغة عموم، كما هو مقرَّرٌ في الأصول.

ومن المعلوم أن الفعل قسمان: فعلٌ حقيقي، وفعلٌ صناعي.

أما الحقيقي فهو الحدث المتجدد، المُعَبَّرُ عنه في علم النحو بالمصدر، وأما الصناعي فهو المعروف في الصناعة النحوية بفعل الأمر والماضي والمضارع.

والفعل الصناعي ينحلُّ عن مصدرٍ وزمنٍ عند النحويين، وعن مصدرٍ وزمنٍ ونسبةٍ عند جماعة من البلاغيين، كما حرَّرُوه في مبحث الاستعارة التبعيَّة.

والمقصود أن المصدر كامنٌ في المفهوم ا الفعل الصناعي إجماعا، وذلك المصدر لم يتعَرَّفْ بمعرِّف ، فهو في معنى النكرة، فالنفي المقترن بـالفعل يتسلَّط على المصدر

الكامن في مفهومه فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي، وهي من صيغ العموم كما هو معروف في محلِّه.

فقوله إذًا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ في معناه: لا إحاطة للعلم البشري بخالق الكون جلا وعلا.

وأنا أؤكدُ لكم كل التوكيد أنكم إن لقيتم ربَّكم يوم القيامة معتقدين في آيات الصفات هذا المعنى الصحيح المتركّزَ على هذه الأسس الثلاثة القرآنية لا يلومكم الله ولا يوبِّخكم على ذلك، فلا يقول لكم: لم تنزهونني عن مشابهة خلقي ؟ ولا يقول لكم: لم تؤمنون بصفاتي وتصدقونني فيما مدحتُ به نفسي، أو أثنى به عليَّ نبيِّي ؟ ولا يقول لكم: لم لا تقولون إن علمكم محيط بمن خلقكم؟

فهذا المفهوم الصحيح طريق سلامةٍ محققة، لأنه بنور القرآن العظيم.

ولو تنطَّع متنطِّع فقال: بيِّنوا لنا كيفيةً للاستواء ، -مثلاً- منزهةً عن كيفية استواء المخلوقين لنعتقدَ صفةَ استواء منزهة عن مشابهة صفات الخلق.

قلنا: أعرفتَ كيفيةَ الذاتِ المقدَّسةِ المتصفةِ بتلك الصفات ؟ فلا بدَّ أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف متوقفةٌ على معرفة كيفية الذات، فسبحان من أحاط بكل شيء علما، ولا يحيطون به علما.

وبالجملة: فالله جل وعلا حق، وصفاته حق، والمخلوقون حق، وصفاتهم حق.

وللخالق صفاتٌ لائقةٌ بكماله وجلاله، وللخلق صفاتٌ لائقةٌ بحالهم ، وبين صفة الخالق والمخلوق من التغاير والمنافاة مثلما بين ذات الخالق والمخلوق، ألا ترون أن الله تعالى وصف نفسه بالقدرة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ووصف بعض خلقه بالقدرة، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ .

ووصف نفسه بالحياة، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ، ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ووصف بعض خلقه بالحياة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ، ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

فلله قدرةٌ وحياةٌ لائقتان بكماله وجلاله، وللمخلوقين قدرةٌ وحياةٌ مناسبة لحالهم وفقرهم وفنائهم.

وبين قدرة الخالق وحياته وقدرة المخلوق وحياته من المنافاة مثلُ ما بين ذات الخالق والمخلوق.

ووصف نفسه بالعلم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾.

ووصف بعض خلقه بالعلم، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وعلمُ اللهِ المنافي لعلم المخلوق كما بيَّنّاه، ولو تتَّبعنا الآياتِ الواردةَ في نحو ذلك لجئنا منها بالمئات، ولكنَّ القصدَ مطلقُ التمثيل.

وكذلك وصف نفسه بالاستواء على العرش في سبع آياتٍ من كتابه، ووصف بعض خلقه بالاستواء على بعض المخلوقات، كقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾.

فاستواء الله على عرشه الذي تمدَّح به، وأثنى به على نفسه بالغٌ من الكمال والجلال ما يقطع على إيقاعها من مشابهة بينه وبين استواء خلقه، كقدرته وعلمه وحياته، لأن ذاته حق، وجميع صفاته حق، ولا يشبهه شيء من خلقه...